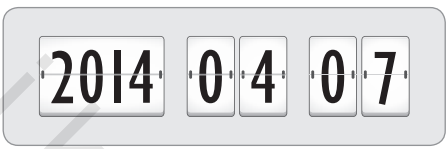

مـن دون أي رتـق لجلسـتنا السـابقة بـادرت هيـلاري كعادتهـا إلـى التقـاط مناقشتنا من دون أي مساعدة من جانبي قائلة: بدأت عام 2011م في البرازيل حاضـرة حفـل تنصيب ديلما روسـيف. أوفدني الرئيـس أوبامـا لتمثيل الولايات المتحـدة، كانت روسـيف المرأة الأولـى التي تحكم بلدهـا، البرازيل متقدمة على الولايات المتحدة من هذه الناحية، قد نتمكن من اللحاق بها ذات يوم.

انتظرت قيام هيلاري بإطلاق تعليق ما حول احتمال توليها لرئاسة الولايات المتحـدة، إلا أنهـا بقيـت صامتـة بعنـاد، مثـل الآخريـن جميعهـم كنت متشـوقة لأعـرف، ومثـل الآخريـن جميعهـم أيضًا كان سـيتعين علي أن أنتظـر، في إحدى المرات أخطأتُ وسألتها عما إذا كانت ستترشح أجابتني: ليتني كنت أعلم.

منتصـف كانـو الثاني/ينايـر، حزمـت حقائبـي مـن جديـد وجررت نفسـي إلى الشـرق الأوسـط، زائـرة اليمن، وعمان، واتحـاد الإمـارات العربية، وقطر، ومسـتخدمة لغـة اسـتثنائية الفظاظـة في مؤتمـر الدوحـة، انتقـدت إخفـاق الحكومات العربية في التحرك بوتائر أسـرع نحو الإصلاح، قائلة إن الأسس في العديد من الأمكنة بالغة الضعف والهزال، الشـرق الأوسـط الذي تصورته يقوم

على قاعدة أصلب كي يتمكن من التجذر والنمو، لم يكن العرب راضين تمامًا عن ملاحظاتي.

زيارتي لليمن، الأولى لأي وزير خارجية أمريكي منذ عشرين سنة، دفعتني إلى التشديد على أخطار الإرهاب في ذلك البلد، في جولة مرتجلة داخل مدينة صنعاء القديمة المسورة سرني هتافات تلاميذ المدارس الهاتفين ترحيبًا بي، لا شيء أعذب من محبة الأطفال الصغار، جعلوني أشتاق لتشلسي الصغيرة – التي لم تعد صغيرة هذه الأيام – حتى أكثر مما هو مألوف.

لدى انطلاق الاحتجاجات المصرية في عام 2011م، كنت في طليعة أصحاب الردود من الإدارة، تصريحي العلني في الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير الذي قلت فيه إن حكومة الرئيس حسني مبارك مستقرة و«عاكفة على البحث عن طرق لتلبية الحاجات والمصالح المشروعة للشعب المصري» انتُقد في وسائل الإعلام؛ إذ عُدَّ فاترًا ومتخلفًا عن وتيرة الأحداث، مع أن آخرين وافقوا على عدم جواز اضطلاع الولايات المتحدة بدور بارز في تقويض حكومة حليف قديم.

من المؤكد أنني كنت في مزاج نقدي، وفكرت: إذا قلقت كلما قال أحدهم كلامًا ينتقدني فيه، فإن من شأني أن أهلك، يبدو أن جلدي بدأ يزيد سُمكًا. في اليوم التالي هاجمت حظر الحكومة المصرية مواقع التواصل الاجتماعي، ومع حلول نهاية كانون الثاني/يناير، حملني الرئيس أوباما مسؤولية جلاء رد الإدارة المشوش على التطورات الجديدة في مصر.

في الثلاثين المحموم من شهر كانون الثاني/يناير، ظهرتُ على شاشات خمس برامج تلفازية صباح يوم الأحد، في ما يشبه نوعًا مما يعرف بـ (غينسبرغ كامل)، أعلنت للملأ– للمرة الأولى– وجهة نظر الولايات المتحدة القائلة بالحاجة إلى نوع من (الانتقال المنتظم) إلى (حكم ديمقراطي قائم

على المشـاركة) وإلى (نوع من التحول السـلمي إلى الديمقراطية الحقيقية) في مصر.

ثم ما لبثت أن وجدت نفسـي على الطريق إلى هاييتي لإحياء ذكرى زلزالها المرعب، شـابكة الرحلتـين الجويتين في اتصالات جماعية حـول مصر. يا إلهي! أناشـدك يـا دكتـورة! يتعبنـي إخبـارك عن هـذا كلـه، ألم تملي وتتعبـي بعد من الاستماع؟!

محركـة رأسـي يمينًا ويسـارًا قلـت، وكنت صادقـة فيما قلتـه: لا، أجد الأمر ساحرًا، وأشعر بميزة متابعة رحلتك عبر التاريخ. أتعلم منك أشياء كثيرة.

أدارت وجهها نحو الجدار، قدرتُ أنها كانت تحاول إخفاء دموعها.

obeikandl.com